عدي بن الرقاع العاملي

٢

شعره

عاصر عدي بن الرقاع سبعة خلفاء من بني أمية وكان مقدماً عندهم لان مذهبه السيامي أموي ولا عمل له غير الشعر وقد حدث في زمانهم من الاحداث ما يبعث الشعر في نفس عدي فمن المفروض ان يكون قال كثيراً من الشعر وقد ذكر له ابن النديم في كتاب الفهرست ديوانًا . ولكن الزمان لم يبق من شعره إلا مقداراً يسيراً مشتتاً في كتب اللغة والادب والتاريخ وتقويم البلدان من ذلك أبيات قالها في الوقعة التي ظفر بها عبد الملك بن مروان وانتهت بقتل مصعب بن الزبير وقصيدتان مدح بهما الوليد بن عبد الملك سبقت الاشارة اليهما وابيات مدح بها عمر بن الوليد ومقطوعات في معاني مختلفة كالوصف والغزل والادب والفخر والمدح والهجاء والتهنئة وكلها لا تبلغ ثلاثمائة بيت وهو مقدار يسير لا يعطينا عن الشاعر صورة تامة واضحة ولكننا نحاول ان ندرس هذه البقية من شعره إلى أن يجود الزمان بشيء مما ضن به علينا

* * *

عدي ابن الرقاع شاعر إسلامي والشعراء الإسلاميون عامة كالفرزدق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجرير والأخطل وكثير وجميل والراعي ونصيب والقطامي، وعدي واحد منهم أعذب لغةً وأحسن ديباجةً وأكثر طلاوةً من شعراء الجاهلية وذلك لتأثرهم بلغة القرآن وحسن انسجامه وسمو أسلوبه دع ما انفسح أمامهم من ميادين الحياة الإسلامية في مثلها العليا من دين وملك لم يكونا في أيام الجاهلية .

وربما كان عدي من أكثر هؤلاء الشعراء انسجاماً وتثقيفاً لشعره وتهذيباً لقوافيه وهو الذي يخبرنا كيف كان يحبر قصائده ويصقلها ويعود عليها بالتهذيب إذ يقول :

وقصيدة قد بتُّ أجمع بينها حتى أقوّم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدها

وهو في فنه صائغ ماهر لا يكره الشعر إكراهاً ولا يقتسر القوافي غصباً ولقد أتيح له من بارع الابيات في انسجامها ما ذهب مثلاً كقوله :

صلى الإله على امرئٍ ودعته وأتم نعمته عليه وزادها

فلقد صار عجز هذا البيت رسماً من رسوم الكتاب في رسائلهم قال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني في فصل دعاء المكاتبة : (فأما قولهم وأتم نعمته عليه وزاد في إحسانه اليه) فهو من قول عدي بن الرقاع:
صلى الإله ..... الخ

وكقوله :

فلو قبل مبكاها بكيت صبابةً بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم
وكم تمثل الناس بهذين البيتين

***

قالوا إن عدياً من حاضرة الشعراء لا من باديهم وانه كان أثيراً مقدماً عند بني أمية ومعنى ذلك أنه من دعاة سياستهم لا من الشعراء الذين يبيعون الشعر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بيعاً . فهل لذلك اثر في شعره ؟ نعم ان اطراد شعره وتساوق أبياته وتلاحمها وتهذيب قوافيه وحسن صياغته وما في تشبيهاته من معان حضرية وفي قصائده من ماء وظل ونعيم كقوله:

فقد أبيت أراعي الخود راقدةً على الوسائد مسروراً بها ولعا

وقوله :

ومما شجاني أنني كنت نائماً أعلل من برد الكرى بالتنسم
الى أن بكت ورقاء في غصن أيكة تردد مبكاها بحسن الترنم

أثر من آثار نعيم العيش ورفاهته فان شعراء البادية يتوسدون في باديتهم أعضاد المطايا وعدي يراعي الخود على الوسائد ويعلل في ظلال الأيك بدمشق بنوم هنيء تترنم من فوقه الحمائم.

على أن حسن تأتيه في مدحه لبني أمية خلفائهم وامرائهم أدل على لباقته وتحضره فهو شاعر مجيد من شعراء القصور يحسن القيام برسوم الخلفاء والامراء في مخاطبتهم على الوجه الأكمل ويمدحهم بما هو أشبه بالدعاية السياسية ويضفي عليهم رداء الجلال والعظمة فاسمعه يقول في مدح الوليد بن عبد الملك :

صلى الذي الصلوات الطيبات له والمؤمنون إذا ما جمعوا الجمعا
على الذي سبق الاقوام ضاحية بالاجر والحمد حتى صاحباه معا
هو الذي جمع الرحمن أمته على يديه وكانوا قبله شيعا
عذنا بذي العرش أن نحيا ونفقده وان نكون لراعٍ بعده تبعا
إن الوليد أمير المؤمنين له ملك عليه أعان الله فارتفعا

ويقول في مدحه أيضاً :

صلى الاله على امرئٍ ودعته وأتم نعمته عليه وزادها
أو لا ترى أن البرية كلها ألقت خزائمها اليه فقادها
ولقد أراد الله إذ ولاكها من أمة إصلاحها ورشادها
أعمرت أرض المسلمين فأقبلت وكففت عنها من يروم فسادها
وأصبت في أرض العدو مصيبة عمت أقاصي غورها ونجادها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ظفراً ونصراً ما تناول مثله أحد من الخلفاء كان أرادها
فإذا نشرت له الثناء وجدته جمع المكارم طرفها وتلادها
تأتيه أسلاب الاعزة عنوةً قسراً ويجمع للحروب عتادها

فهل ترى نمطاً أليق بمخاطبة الخلفاء من هذا النمط تحية الخليفة بالصلاة عليه وتعظيم للامر المضطلع به وإشادة بعظائم أعماله في سبيل الامة وإخلاص في محبته وتأييد لملكه وعرشه بل كيف ترى الفرق بين هذا الاسلوب الحضري وبين أسلوب بعض بادية الشعراء الذين اعتادوا أن يصفوا الممدوح بالحية الذكر ويمدحوه بتأريث النيران وعظم القدور ونحر الجزور ودعوة الجفلى والنداء على الطعام وكثرة الهبات أو أن يصفوا عناء سفرهم إلى الخليفة وما لاقوه من المشاق وماهم عليه وعيالهم الذين خلفوهم وراءهم من الفاقة ليزيد الخليفة في رفدهم . هذا جرير أطبع أهل زمانه على الشعر لم يستقم له في مدح الخلفاء ذلك الاسلوب الذي استقام لعدي فانه في مدحه لعمر بن عبد العزيز أشبه بالمستجدي منه بالشاعر قال :

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر
أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت أم قد كفاني الذي بلغت من خبري
كم بالمواسم من شعثاء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به مسا من الجن أو خبلاً من البشر
ممن يعدك تكفي فقد والده كالفرخ في العش لم يدرج ولم يطر
خليفة الله ما ذا تأمرون بنا لسنا اليكم ولا في دار منتظر
لتنعش اليوم ريشي ثم تنهضني وتنزل اليسر مني موضع العسر

وما ذلك الا لبداوة جرير وبعده عن حياة الحاضرة على أنه بحر لا ساحل له .

ولعدي أيضاً أبيات يمدح بها أحد أمراء بني أمية وهو عمر بن الوليد بن عبد الملك تدل على لباقة وحسن تأت لو قالها أحد شعراء القصور في هذه الايام لأثارت إعجاب الناس لما فيها من حذق ولباقة وهي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وإذا نظرت الى أميري زادني ضنا به نظري الى الامراء
تسمو العيون اليه حين يرونه كالبدر فرّج بهمة الظلماء
والقوم أشباه وبين حلومهم بون كذاك تفاضل الاشياء
كالبرق منه وابل متتابع جود وآخر ما يجود بماء
والاصل ينبت فرعه متأثلا والكف ليس بنانها بسواء
بل ما رأيت جبال أرض تستوي فيما غشيت ولا نجوم سماء
والمرء يورث مجده أبناءه ويموت آخر وهو في الاحياء

وفي شعر عدي عدا النعومة الحضرية مفردات ومعان تدل على الحضارة كذكر الكتاب والقلم والدواة والبريد والشجار كقوله :

تزجي اغن كأن ابرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

وكقوله :

لمن رسم دار كالكتاب المنمنم بمنعرج الوادي فوبق المهزم

وقوله :

ونحن بأرض قل ما يجشم السرى بها الغربيات الحسان الحرائر
كثير بها الاعداء يحسر دونها بريد الامام المستحث المثابر

وقوله :

مستطير كأنه سابري عند نحر منشر وملاء

على ان أثر البادية ظاهر جلي في شعره أيضاً فأنت تدرك به روح البادية كما تبصر أفياء الحاضرة فتراه يصف المطايا والمفاوز وما فيها من أعلام طامسة وأطلال دارسة ووحوش راتعة ولكنه ينتزع لها تشبيهات مما شاهده في الحاضرة بمتانة رصف وقوة أسر وجزالة تركيب ولعل عدم انقطاعه عن البادية هو الذي كفل لشعره السلامة مما يعتري كثيراً من شعراء الحواضر ويسميه النقاد باللين ويعنون به الرقة التي تفضي الى الاسفاف ونجد هذا اللين في شعر عدي بن زيد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العبادي وأمية بن أبي الصلت وابن قيس الرقيات والوليد بن يزيد وكلهم حضريون .

وهكذا فشعر عدي بما فيه من روح البادية ورونق الحاضرة عربي في جزالته ورصفه وخياله ومعانيه وتفكيره ونظراته لا تجد فيه أثراً من ثقافة أجنبية شأن جميع الشعراء الاسلاميين لان الحياة بجميع مظاهرها أيام بني أمية كانت عربية إسلامية .

لقد أحسن عدي في الوصف فإنه وصف الطيف والغيث والبرق والليل والخمر والمطايا والظباء والوحوش في حركاتها وما تثيره من الغبار في عدوها . قال صاحب الاغاني قال عبد الله بن مسلم : « ومما ينفرد به (عدي) ويقدم فيه وصف المطية فإنه كان من أوصف الشعراء لها »

قال في الخيل :

يخرجن من فرجات النقع دامية كأن آذانها أطراف أقلام

وقال ابن قتيبة : عدي أحسن من وصف الظبية وولدها .

وقال جرير : سمعت عدي بن الرقاع ينشد الوليد بن عبد الملك قصيدته التي أولها :

عرف الديار توهماً فاعتادها

فحسدته على أبيات منها حتى أنشد في صفة الظبية والغزال

تزجي اغن كأن ابرة روقه

فرحمته من هذا التشبيه وقلت بأي شيء يشبهه ترى فلما قال :

قلم أصاب من الدواة مدادها

رحمت نفسي منه وحالت الرحمة حسداً .

قال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني : (واما قول عدي في صفة قرن الظبي فليس له شبيه)

ولم يقل أحد كما قال عدي يصف حماري الوحش في عدوهما وما يثيرانه من الغبار :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يتعاوران من الغبار ملاءة غبراء محكمة هما نسجاها
تطوى إذا علوا مكانا جاسيًا وإذا السنابك اسهلت نشراها

والى ذلك أشار أبو تمام الطائي بقوله :

تثير عجاجة في كل ارض يهيم بها عدي بن الرقاع

وقال ابو هلال العسكرى في ديوان المعاني بعد أن أورد بيتي عدي : (لا اعرف في صفة الغبار أحسن ولا أتم من هذا)

وعدي في غزله محسن رقيق عذب يغلب عليه الوصف الدقيق في المعاني الغزلية ، من ذلك وصف تفتير العينين ولم يقل أحد مثله . قال نوح بن جرير يا أبت من أنسب الشعراء ؟ قال أتعني ما قلت قال إني لست أريد من شعرك انما اريد من شعر غيرك قال ابن الرقاع في قوله :

لولا الحياء وان رأسي قد عسا فيه المشيب لزرت أم القاسم
وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت في عينه سنة وليس بنائم

ثم قال لي ما كان يبالي ان لم يقل بعدها شيئًا .

وهذه الابيات مما يتغنى به . قال محمد بن عباد كنت عند أبي عمرو وعنده رجل أعرابي كأنه مدني فقرأت عليه ابيات عدي : (لولا الحياء وان رأسي قد عسا) فقال ابو عمرو أحسن والله فقال الاعرابي أما والله لو رأيته مشبوحا بين اربعة وقضبان الدفلى تأخذه لكنت له أشد استحسانًا يعني إذا كان يغني على العود .

قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في كتاب الوساطة : « واما قول عدي (وسنان ...) فقد زاد به على كل من تقدم وسبق بفضله جميع من تأخر ولو قلت اقتطع هذا المعنى فصار له وحظر على الشعراء إدعاء الشرك فيه لما اراني بعدت عن الحق ولا جانبت الصدق »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال ابو هلال العسكري في ديوان المعاني : قال ابو عمرو لاصحابه ما أحسن ما قيل في العيون ؟ قال بعضهم قول جرير

ان العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

وقال آخر قول ذي الرمة :

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالالباب ما تفعل الخمر

وقال آخر بل قوله

يذكرني ميا من الظبي عينه مراراً وفاها الاقحوان المنوّر

فقال أبو عمرو أحسن من هذا كله قول عدي بن الرقاع العاملي:

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت في عينه سنة وليس بنائم

ومن غزله العذب قوله:

صادتك أخت بني لؤي إذ رمت وأصاب مهمك اذ رميت سواها
وأعارها الحدثان منك مودةً واعير غيرك ودها وهواها
بيضاء تستلب الرجال عقولهم عظمت روادفها ودق حشاها
يا شوق ما بك يوم بان حدوجهم من ذي الموبقع بغدوةً فرآها

وقوله :

ونبه شوقي بعد ما كان نائماً هتوف الدجى مشغوفة بالترنم
بكت شجوها عند الضحى فتساجمت اليها دموع العين من كل مسجم
فلو قبل مبكاها بكيت صبابةً بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم

وله نظرات في الادب والحكمة تغلب عليها السذاجة العربية زين بها بعض قصائده في مناسبات شتى كالابيات التي مدح بها عمر بن الوليد بن عبد الملك وقد سبق ايرادها وغيرها كقوله :

أخبر النفس انما الناس كالعير دان من بين نابث وهشيم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقوله :

والدهر يفرق بين كل جماعة ويلف بين تباعد وتناء

وقوله :

والمرء ليس وان طالت معيشته يرى الذي هو لاق قبل ان يقعا

وقوله :

إني إذا ما لم تصلني خلتي وتباعدت عني اغتفرت بعادها

ومن المعاني التي نظم بها عدي التهنئة وهو معنى لم تقل الجاهلية فيه قال يهنئ عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك حين تزوج :

قمر السماء وشمسها اجتمعا بالسعد ما غابا وما طلعا
ما وارت الاستار مثلهما فيمن رأيناه ومن سمعا
دام السرور له بها ولها وتهنآ طول الحياة معا

اثر الشام في شعر عدي

الشعر العربي ابن البادية تعبق منه رائحة الشيح والقيصوم في بوادي الحجاز ونجد وهضاب اليمن وظلال الشام وشواطئ دجلة وسقي الفرات ، والشاعر العربي لعهد عدي يعتد روح البادية عمود الشعر وقوامه ولكن بالرغم من ذلك فان أثر الشام واضح جلي في شعر عدي فلقد ذكر مدنها وحواضرها وقراها وربوعها ورياضها وظلالها وأنهارها ومياهها وجبالها وباديتها كما ذكر آرامها ووحوشها وطيورها مثل حمص وخناصرة والاحص وجاسم والمرج والمناظر والازرق واعامق وفلسطين وبيت رأس والاردن والغريفة وغيرها وطبيعة الشام المنسجمة الساحرة في ارضها وسمائها وما في دمشق يومئذ من جلال الخلافة وعظمة الملك أوحى الى عدي كثيراً من ذلك الانسجام واللباقة والتثقيف في شعره حتى صار يعتد ذلك فناً خاصاً بالشاميين لايجيده غيرهم ولذلك كان عدي ينتقد كثيرعزة و يغمزه ويطعن على شعره و يقول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(هذا شعر مجازي مقرور إذا أصابه قر الشام جمد وهلك) وهكذا فعدي فخور بعربيته وشاميته معترف بما توحيه طبيعة الشام الساحرة الى الشاعر العربي حتى يرى نفسه فوق شعراء العربية .

ولقد وجد عدي في بادية الشام مجالا لرياضة الشعر على النحو الجاهلي في بوادي نجد والحجاز فاعتسف مفاوزها ووقف على الرسوم وبكى الاطلال ووصف الآل وحنّ إلى آكامها ودارانها وربوعها وشبب بغزلانها واهتاج للمع بروقها .

وهذه أمثلة من شعره يلوح عليها الطابع الشامي :

منعوا الثغرة التي بين حمص والكهاتين ليس فيها عريب
وإذا الربيع تتابعت انواؤه فسقى خناصرة الاحص فجادها
وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم

والغريب أن القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة على نفوذ بصره وصحة أحكامه في النقد أساء فهم هذا البيت فظن أن ذكر جاسم من حشو الكلام لا فائدة في ذكره فقال بعد أن قرظ البيت « وقد رأيت ظباء جاسم فلم أرها إلا كغيرها من الظباء وقد يختلف خلق الظباء وألوانها باختلاف المنشأ والمرتع وأما العيون فقلّ أن تختلف لذلك » وفاته أن عديا شامي وجاسم من قرى الشام فلجآذرها منزل في قلبه لا يحتله غيرها .

ومن شعره المطبوع بالطابع الشامي :

فكأني من ذكركم خالطتني من فلسطين جَلْسُ خمرٍ عُقارُ
عنقت في الدنان من بيت راس سنوات وما سبتها التجار

وقوله :

حتى وردن من الازرق منهلا وله على آثارهن محيل

وقوله

تذرذا ولكن هل ترى ضوء بارق وميضا ترى منه على بعده لمعا
تصعد في ذات الارانب موهنا اذا هزّ رعدا خلت في ودقه شفعا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الى مايشابه هذه الابيات في شعره . وهناك ابيات يلم فيها بالاحداث السياسية التي جرت في الشام كوقعة مرج راهط التي كانت بين مروان بن الحكم والضحاك بن قيس سنة أربع وستين وما كان من بلاء أهل الأردن الحسن مع مروان حتى قتل الضحاك وتم الأمر لمروان قال :

لولا الإله وأهل الاردن اقتُسمت نار الجماعة يوم المرج نيرانا

وكانتصار مسلمة بن عبد الملك على الروم سنة سبع وثمانين عند طوانة قال :

وكان أمرك من أهل الطوانة من نصر الذي فوقنا والله أعطانا

أمراً شددت باذن الله عقدته فزاد في ديننا خيرا ودنيانا

يتبع خليل مردم بك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net